مجلة "منبر التراث الأثري"
ISSN: 2335-1500, EISSN: 2602-7267
المجلد:10؛ العـدد: 01؛ 2021
ص 161–189

تاريخ الاستلام: 2020/12/04 تاريخ القبول: 2021/01/07

تاريخ مدينة مليانة وحمامها العثماني

أ.د **محمد بن حمو**، أستاذ بقسم علم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان/ مخبر التراث الأثري وتثمينه
benhammoumohamed10@yahoo.fr

ملخص:

يتطرق هذا المقال إلى دراسة أثرية لحمام عثماني بمدينة مليانة، وبما أننا نتكلم على مدينة لم تبلغ شهرتها شهرة العواصم الإقليمية في تلك الفترة، فإننا سنتكلم في البداية على وصفها من خلال المصادر الجغرافية وكتب الرحلات، وبعد ذلك نعرج على تاريخها مركزين في ذلك على الفترة العثمانية، وأخيرا نتطرق إلى دراسة حمام البركة العثماني وهو الحمام العثماني الوحيد المتبقي بها وذلك من خلال العمل الميداني، وفي ظل غياب تاريخ واضح عنه فإننا سنحاول معرفة ذلك من خلال تأصيل العناصر المعمارية المكونة له وكذا اعتمادا على المقارنة بينه وبين غيره من الحمامات العثمانية.

الكلمات المفتاحية: مليانة، مدينة، تاريخ، حمام، عثماني.

History of Miliana and its Ottoman Bath

Pr.Benhammou Mohamed, Département d'archéologie,univ Tlemcen
benhammoumohamed10@yahoo.fr

Abstract:

This article deals with an archaeological study of an Ottoman bath in the city of Miliana, and since we are talking about a city whose fame did not reach the fame of regional capitals during that period, we will first talk about its description through geographical sources and travel books, and after that we look at its history focusing on that on the Ottoman period Finally, we touch upon the study of the Ottoman pool, which is the only remaining Ottoman bath in it, through field work, and in the absence of a clear history about it, we will try to find out about this through the rooting of the architectural elements that make up it, as well as depending on the comparison between it and other Ottoman baths.

Keywords: Miliana-city-history- bath-Ottoman.

1. مقدمة:

مدينة مليانة من مدن الوسط الجزائري اشتهرت بكونها مركزا عمرانيا مُهِمًا رغم صغر حجمها، وذلك لكونها بُنيت في موقع طبيعي محصن أهَّلَها لأن تكون ضمن اهتمامات الدول التي تعاقبت على حكم الجزائر ومن بينها الدولة العثمانية، فقد أصبحت مدينة مليانة من أهم المدن وكانت لها علاقة وطيدة مع بايلك التيطري لقربها منه، لذلك فقد بنى فيها الأتراك العثمانيون عدة معالم مهمة من أهمها المسجد العتيق وزاويته اللذين اشتُهرا بمسجد وزاوية سيدي أحمد بن يوسف، وكذا كثير من المساكن الفخمة الشبيهة بالقصور، بالإضافة إلى الفنادق التي لا يزال بعضها باقيا إلى يومنا هذا، هذا فضلا على حمامين بُنيا في هذه الفترة، دون أن ننسى العمارة الدفاعية والمتمثلة في الأسوار والأبراج والأبواب، ولا يزال حيٌ بالمدينة يُعرف باسم الطبانة والذي يوحي بوظيفته العسكرية.

وعلى هذا سنتطرق في هذا المقال إلى وصف المدينة من خلال المصادر الجغرافية وكتب الرحلات، ثم نعرج على تاريخها خاصة في الفترة العثمانية، ثم محاولة القيام بدراسة أثرية لحمام البركة العثماني وهو الحمام الوحيد المتبقي، وإذا كانت كثير من المعالم لا تزال تحافظ على خصائصها المعمارية؛ فإنه لم يبق من الحمامين إلا حمام واحد فقط، وفي ظل غياب تاريخ واضح له، فهل فعلا هو حمام عثماني؟ أو أنه سابق عن هذا التاريخ؟ وهذا ما سنحاول الإجابة عليه من خلال العمل الميداني ومقارنة الحمام مع غيره من الحمامات في الأيالات الجزائرية.

2– مدينة مليانة من خلال المصادر الجغرافية:

لعل أول وصف لمدينة مليانة وقفنا عليه ما وصفها به البكري خلال القرن الرابع الهجري حيث قال:"مدينة مليانة وهي مدينة رومية فيها آثار، وهي ذات أشجار وأنهار تطحن عليها الأرحاء، جددها زيري بن مناد وأسكنها ابنه بلجين، وهي عامرة"، وقال في موضع آخر:"مدينة مليانة وهي أولية جددها زيري بن مناد وأسكنها ولده بلجين شريفة آهلة على نهر، وتشرف على فحص الذي فيه بنو واريفن وغيرهم، وهي عامرة آهلة على نهر ولها آبار عذبة وسوق جامعة"[1].

---

[1]– أبو عبيد الله البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من المسالك والممالك**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة–مصر، ص61، 69.

أما الإدريسي المتوفي خلال القرن السادس الهجري فيقول أنها مدينة قديمة البناء حسنة البقعة كريمة المزارع ولها نهر يسقي أكثر مزارعها وحدائقها وجناتها ولها أرحاء على نهرها المذكور، ولأقاليمها حظ من سقي نهر شلف[2].

وقد ذكر الرحالة ابن بطوطة مليانة في رحلته وذلك أنه دخل تلمسان أيام حكم أبي تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن، والتقى برسولَيْ ملك إفريقية السلطان أبي يحي وهما قاضي الأنكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي بن إبراهيم النفزاوي، والشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي نسبه إلى قرية بساحل المهدية وهو أحد الفضلاء وفاته عام أربعين 40، وفي يوم وصوله إلى تلمسان خرج عنها الرسولان المذكوران فأشار عليه بعضهم بمرافقتهما غير أنه مكث في تلمسان ثلاثا في قضاء مصالحه، ثم خرج في أثرهما فلما وصل إلى مليانة أدركهما بها وذلك أيام الحر(أي الصيف) فلحق الفقيهين مرض أقاموا بمليانة عشرة أيام، ثم ارتحلوا وقد اشتد المرض بالقاضي، وبعد مسيرة أميال أقاموا على ماء هناك ثلاثة أيام، وتوفي القاضي في اليوم الرابع، فعاد ابنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله الزبيدي إلى مليانة فقبروه بها، أما ابن بطوطة فتركهم هناك وارتحل مع رفيق له من تجار تونس منهم الحاج مسعود بن المنتصر والحاج العدولي ومحمد بن الحجر باتجاه الجزائر وكان ذلك سنة 725هـ[3].

هنا أمور منها، علاقة تونس مع تلمسان وفي هذه الفترة كانت تلمسان قد استقلت عن حكم الحفصيين بعد حصار أبي يعقوب يوسف، أيضا لعل إرسال القاضي والفقيه كان لأجل الصلح، بالإضافة إلى أن التجارة كانت تتم برا فضلا عن البحر، أيضا طريق القوافل والتجار كانت بين تلمسان مليانة الجزائر باتجاه تونس.

---

[2]- الشريف الإدريسي، **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس** مأخوذ من كتاب **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبع بريل، 1863م، ص84-85.

[3]- رحلة ابن بطوطة المسماة **تحفة النظار في غرائب الأمصار**، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، دط، دت، ص32-33.

ووصفها الحميري (يرجح أنه توفي عام 727هـ)فقال: مليانة مدينة في أحواز أشير من أرض المغرب بين تنس والمسيلة وبقرب نهر شلف، وهي مدينة رومية فيها آثار وهي ذات أشجار وأنهار تطحن عليها الأرحاء، جددها زيري بن مناد وأسكنها ابنه بلكين، وهي عامرة ومشرفة على جميع ذلك الفحص الذي فيه بنو واريفن وغيرهم وهي عامرة آهلة ولها آبار عذبة وسوق جامعة، وبقعتها كريمة ومزارعها خصيبة ونهرها يسقي أكثر مزارعها وجناتها، ولها أرحاء على نهرها ولأقاليمها حظ من سقي شلف...وفي مليانة لقي أبو بكر ابن الصابوني الشاعر السلطان أبا زكريا ملك إفريقية، كان هاجر إليه من الأندلس وركب البحر وخرج في ساحل الغرب الأوسط ولقي عسكر السلطان على مليانة، فنظم قصيدة وتعرض بها جهة خيام خدام السلطنة، فمن العجائب أن لحظه السلطان بعينه فقال للحاجب: إن صدق ظني فذاك الشخص الذي من صفته كذا الناظر إلى جهتنا هو ابن الصابوني الشاعر، فسِر إليه برفق واسأله فإن كان هو ومعه قصيدة فيحضرها وينشدها، فكان الأمر على ما قدّر السلطان، وحضر وأنشد قصيدة أولها:

الله جارك في حل ومرتحل يا معليا ملة الإسلام في الملل

فسرت والسعد يدعوني وينشدني أن السعادة في مليانة فمل

فلما أتمها أمر بإنزاله وأنعم عليه بخمسمائة 500 دينار وصحب العسكر إلى حضرة تونس[4].

وقد ذكر العبدري (توفي بعد 745هـ) في رحلته مدينة مليانة وذلك أنه لما خرج من تلمسان في ربيع الأول قال ثم وصلنا وقد ألقى جمل الإعياء جرانه، وغنى بلبل الليل ألوانه إلى البلدة الخصيبة مليانة، وهي مدينة مجموعة مختصرة وليست مع ذلك عن أمهات المدن مقتصرة، أشرفت من كثب على وادي شلف، واستشرفت نسيم طرفها من شَرفْ في روضة جمة الأزهار والطرف، فرعت في سفح جبل حمى حماها أن يرام، وشرعت في أصل نهر يشفي الهُيُم من الهيام، شاق منظرا وراق مخبرا وشفى الظّماء موردا ومصدرا، يشتهي الناظر إليه–وهو ريان–الشروع ويقول: لو رش به لأفاق المصروع، كأن حصباءه جمان والماء من رقته دموع، وبها جامع مليح

[4]– محمد بن عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، معجم جغرافي مع فهارس شاملة، حققه إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان–بيروت، 1984م، ص547.

عجيب يدعو الشوق من رآه فيجيب، ولكن الزمان قد عوضه من حلي عطلا وأدى له من حكمة خطلا وأبدل هالته السها من تلك الأقمار وكساه بعد الخبر الأطمار، وحل حلاله بعد الأنس بأنسها وحشة العمار، فلو صرحت في الجوى بالجواب وأفصحت عن وقوع النوى بالنوائب النّواب لأنشدت باستعجال وقالت بارتجال:

شباب لدى عهد الشبيبة قد عسا أعلل فيه النفس علّى أو عسى
لعل ربوعا من حلاها عواريا تعود لها تلك المفاخر ملبسا
لعل نجوما ما كنت هالة بدرها ستجلو ظلاما حلّ أفقي فألبسا
لعل انتظام الشمل يرجع ثانيا ويعطف بالإحسان دهرٌ بنا أسا
رماني زماني بالنوى من أحبه لبينهم عاد الأنيس مغبسا
نأتي عمر الحبر الإمام بحاضري فكيف ألاقي من زماني تأنسا
وقد حظيت أغمات منه بماجد تدرع من غير الفضائل ملبسا
لقد هنت حتى شط عني مزاره ونالت به أغمات مجدا مؤسسا
وكنت مقيلا للهداة تؤمّه فصرت لأخلاط الغواة معرِّسا
وكنت لباغي الجود والعلم ملتقى فإن شئت مقراة وإن شئت مدرسا
وكم كنت للضرغام والظبي مألفا أنسيك إن أبصرت خيسا ومكنسا
أراغم ريب الدهر منه بماجد إذا ضاق خطب أو تفاقم نفسا
فجللت عن تلك الجلالة علة وعوضت من تلك الأهلة حندسا
فها أنا أشدو أن نطقت تمثلا وليل همومي قد رجاني وعسعسا
وبدلت قرحا داميا بعد صحة لعل منايانا تحولن أبؤسا

وما بقي بها من له بالعلم أدنى عناية[5].

ثم قال وقد وصف الأديب أبو علي حسن بن علي بن عمر القسنطيني المعروف بابن الفكون ملیانة بقوله:

وفي ملیانة قد ذبت شوقا بلين العطف والقلب القسي[6]

ثم وصف ينبع بالحجاز ثم قال وصاحبها مستبد بها كاستبداد صاحب ملیانة إذ لا يرغب فيهما (يقصد لا يطمع) كل بلد مثلهما لوقع الأمان ولم ينتطح فيهما عنزان[7].

ثم وصف هو ملیانة بقوله:

ووافينا تلمسان فأبدت على أهل مضوا شجوا النعي

كذا ملیانة أبدت عويلا لأهل ضمهم جرف الأتي[8]

وعن ملیانة يذكر حسن الوزان (توفي بعد 957هـ) أن قبيلة عقبة وهي من قبائل بني هلال كانت تسكن ضواحي ملیانة...وهم فتاكون بدون شفقة ولا رحمة وهم نحو ألف فارس[9]، وملیانة مدينة كبيرة جدا بناها الرومان وأطلقوا عليها اسم ماكنانة لكن العرب حرّفوا هذا الاسم، تقع هذه المدينة في قنة جبل على بعد نحو أربعين ميلا من البحر، وهذا الجبل مليء بالعيون ومكسو بأشجار الجوز، حتى أن الجوز هناك لا يشترى ولا يقطف، والمدينة

---

[5]– أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود العبدري، **رحلة العبدري**، حققها وقدم لها علي بن إبراهيم كردي، وشاكر الفحام، ط1، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع–دمشق، 1419هـ/1999م، ص78–81.

[6]– العبدري، مصدر سابق، ص97.

[7]– نفس المصدر، ص345.

[8]– نفس المصدر، ص568–569.

[9]– الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت–لبنان، 1983م، ص51.

محاطة بأسوار عالية عتيقة، والصخرة تشرف من جهة شعب سحيق، ومن جهة أخرى على منحدر يبدأ من أعلى الجبل، ويُذكر بمدينة ناربي القريبة من روما، ويضيف قائلا: "ولميانة دور متقنة الصنع، في داخلها كلها سقايات جميلة، يكاد يكون سكانها كلهم صناع، نساجين أو خراطين، وصنع هؤلاء أواني من خشب في غاية الحسن، ويشغل كثير من السكان كذلك الفلاحة، وقد عاشوا كلهم أحرارا حتى جاء بربروس فأخضعهم وفرض عليهم الضرائب"[10].

أما مارمول فيقول عنها أنها مدينة كبيرة بناها الرومان فوق جبل مرتفع جدا على بعد أربعة عشر فرسخا من شرشال في داخل البلاد، وعلى بعد خمسة عشر فرسخا غربي مدينة الجزائر، جعل بطليموس موقعها عند 15° و50 دقيقة من خطوط الطول و28° و50 دقيقة من خطوط العرض، جبالها كثيرة الينابيع والجداول، وفي كل مكان منها أشجار جوز باسقة تثمر من الجوز كميات كبيرة لا يتوصل السكان إلى قطفها كلية، فيضيع جزء منها، تحيط بالمدينة أسوار قديمة عالية حصينة جيدة البناء، تجاورها من إحدى الجهات صخرة عالية شديدة الانحدار يوجد في أسفلها واد عميق، وفي الجهة المقابلة تمتد المدينة على سفح الجبل، وبها قلعة كبيرة تشرف عليها، دورها معتبرة تتوفر على عدد من الينابيع، ولكن سكانها معروفون بغلظتهم، ومعظمهم من صناع الجوخ والسروج على طريقة المغاربة، ومن سكانها خراطون يصنعون أوعية خشبية للشراب يقبل الناس على اقتنائها، وتحيط بالمدينة بساتين شاسعة بها أحسن ما في بلاد البربر من أشجار الليمون، تنمو بها أيضا أشجار البرتقال التي تعطي ثمارا جيدة تحمل لبيعها في تنس وغيرها من المدن ... ولا توجد بهذه النواحي مدن أخرى تستحق الذكر وإن كانت تشاهد بها أنقاض عدد من المدن لم تعد تُعرف حتى أسماؤها[11].

---

[10]- الحسن الوزان، مصدر سابق، ج2، ص34-35.

[11]- مارمول كاربخال، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي وآخرين، ج2، مطابع المعارف الجديدة، الرباط-المغرب، 1409هـ/1989م، ص359-360.

وقات ياقوت: "مَليانة بالكسر ثم السكون وياء تحتها نقطتان خفيفة وبعد الألف نون، مدينة في آخر إفريقية بينها وبين تنس أربعة أيام وهي مدينة رومية قديمة فيها آبار وأنهار تطحن عليها الرحى، جددها زيري بن مناد وأسكنها بلكين"[12].

ويصف الرحالة الألماني هابنسترايت مليانة لما زارها في 30 أفريل 1145هـ/1732م، فيقول وصلنا إلى مليانة أو ميلية وقد استُقْبل فيها الآغا بالمراسيم الشرفية المعهودة ولم نعثر فيها على شواهد تدل على تاريخها القديم سوى نقش موجود بحصنها، وهذه المدينة مبنية على نتوء صخري عند جبل زكار، وحاولتُ تسلق هذا الجبل...وأثناء وجودي في مليانة كنت متضايقا لعدم تمكني من زيارة حمامات باكومام ماريدة Bacoumam Mareda (المعروفة حاليا بحمام ريغة) الواقعة على بعد مسافة قصيرة[13].

ويصف حمدان خوجة مليانة بقوله: "يتسم سكان مليانة بنوع من العناد أرضهم خصبة للغاية وهم فلاحون، وثمرهم ممتاز، لا يمارسون أي نوع من أنواع الصناعة، وليس لهم حرف غير تجفيف الفواكه، وصناعة نوع من المعجون بعصير العنب واللوز يمكن الاحتفاظ به طوال السنة، مناخهم صحي"[14].

ما يمكن أن نقوله عن **تاريخ** مدينة مليانة قبل دخول العثمانيين إلى الجزائر باختصار، أنه ولا شك قد وصلت إليها الفتوحات الإسلامية عن طريق الحملة الثانية التي قادها عقبة بن نافع الفهري في خلافة يزيد بن معاوية عام

---

[12]– شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، **معجم البلدان**، عني بتصحيحه وترتيب وضعه وكتابة المستدرك عليه محمد أمين الخانجي الكتبي بقراءته على أحمد بن الأمين الشنقيطي، مع المستدرك عليه المسمى منجم العمران لمحمد أمين الخانجي، ط1، ج8، طبع بمطبعة السعادة–مصر، د.ت.، ص155.

[13]– **رحلة العالم الألماني ج. او. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس1145هـ/1732م**، ترجمة وتقديم وتعليق ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، دط، دت، ص61–62.

[14]– حمدان خوجة، **المرآة**، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، تصدير عبد العزيز بوتفليقة، منشورات ANEP، 2005م، ص58.

62هـ/682م وقد بلغ في هذه الحملة إلى طنجة حد المغرب الأقصى[15]، ثم بعد ذلك توال عليها حكم بعض الدويلات، فدخلت تحت حكم الرستميين الإباضية[16]، ثم حكمها الفاطميون الشيعة لما بسطوا نفوذهم على كامل المغرب، ثم أصبحت من نصيب الزيريين الذين حكموا باسم الفاطميين وكنا ذكرنا في أقوال المصادر الجغرافية عند كل من البكري والحميري وياقوت الحموي بأن زيري بن مناد الصنهاجي جددها وأسكنها ابنه بلكين، ثم ملكها الحماديون من بعدهم لما استقلوا بدولتهم، إلى أن دخلت في حكم المرابطين الذين وصل نفوذهم إلى جزائر بني مزغنة(الجزائر العاصمة حاليا)، ثم أصبحت تابعة لمملكة الموحدين، ومن بعدهم حكمها الزيانيون وأحيانا كانت تسقط في حكم المرينيين وأحيانا أخرى تحت حكم الحفصيين، إلى أن جاء العثمانيون فافتكوها من أيدي الزيانيين، وبقيت تابعة لهم إلى دخول الاستعمار الفرنسي.

3- مليانة بعد دخول العثمانيين إلى الجزائر:

بعد أن استولى عروج على جيجل ثم بجاية ثم شرشال ثم الجزائر، أخذ يوسع ملكه فامتد إلى المدية ومليانة وكامل بلاد القبائل[17].

---

[15]- محمد محمد زيتون، مرجع سابق، ص40-48؛ يحي بوعزيز، مرجع سابق، ج1، ص77-78؛ صالح فركوس، مرجع سابق، ص71-73.

[16]- يحي بو عزيز، مرجع سابق، ج1، ص97-102؛ صالح فركوس، مرجع سابق، ص82؛ وقد نقل إسماعيل العربي أقوال الجغرافيين فيها، (تنس 151-155؛ وهران140-142؛ المعسكر149؛ مليانة150-151؛ أشير156-159)

[17]- أحمد توفيق المدني، **محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791م سيره، حروبه، أعماله، نظام الحياة الدولة والحياة العامة في عهده**، المؤسسة الوطنية للكتاب-الجزائر، 1986م، ص24؛ وليم سبنسر، **الجزائر في عهد رياس البحر**، تعريب وتعليق عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980، ص34، 43؛ عزيز سامح التر، **الأتراك العثمانيون في أفريقية الشمالية**، ترجمة محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، 1409هـ/1989، ص57.

من المشاكل التي صادفت الريس خضر لإعادة الأمن للبلاد مشكلة تأمين السلاح والبارود، ففي تلمسان تسلم الحكم ثانية أبو حمو وامتد نفوذه حتى مليانة، فغدا بذلك على مقربة من مدينة الجزائر[18].

وفي ربيع 951هـ/1544م قام حجي بشير وكيل حسن باشا بشن هجوم ضخم على المتمردين بجوار مليانة، وهناك تجمع الأهالي حول قائد يدعى بوترك Buterek وتمكن بوترك من الانتصار على حراس الأتراك في مليانة، وتابع طريقه إلى متيجة ونهبها ومن ثم اتجه إلى مدينة الجزائر لمحاصرتها[19].

ثم قدم أمير الأمراء حسن باشا بن خير الدين إلى الجزائر في نفس السنة أي 951هـ حاكما عليها...وأول عمل قام به في الجزائر هو تنظيم الجيش وتطبيق الانضباط فيه، وبعد ذلك قضى على تمرد القبائل القاطنة جنوب مليانة والمناطق الغربية من مدينة الجزائر[20].

ذكر بعض المؤرخين عند ترجمتهم لمحمد الكبير أنه كان بمليانة واسمه محمد بن عثمان الكردي الذي يسميه العرب في الناحية الغربية محمد الأكحل لأنه كان أسمر اللون، وأمه جارية اسمها زائدة أهداها لأبيه مولاي إسماعيل سلطان المغرب الأقصى لمودة كانت بينهما، وأبوه هو أبو إسحاق الحاج عثمان بن إبراهيم الكردي كان خليفة على مليانة ثم ارتقى فأصبح بايا في مقاطعة التيطري(المدية) وأحوازها، وتوفي عثمان بمعسكر ودفن بها سنة 1170هـ، وكان أبو عثمان الكردي مرتبطا بعرى الصداقة مع أبي إسحاق إبراهيم المليانى، وكان هذا الأخير قائدا على مليانة، ولما توفي الباي عثمان تكفّل إبراهيم بعائلته واعتنى بولديه محمد الكبير، ومحمد الرقيق (بوكابوس) هذا الأخير أخ لمحمد الكبير من أبيه وأمه حرة اسمها خديجة، وزوّج إبراهيم ابنته لمحمد الكبير فأصبح صهره، ولما ارتقى إبراهيم وعُيّن على الأيالة الغربية أخذ معه صهره، ثم وبعد ذلك أصبح محمد الكبير بايا على الأيالة الغربية سنة

---

[18]– عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص71.

[19]– نفس المرجع، ص172.

[20]– نفس المرجع، ص173.

1779هـ، ومن أعمال محمد الكبير أنه بنى ضريحا على قبر الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف بمدينة مليانة[21].

والشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف أحد الأولياء الكبار والأتقياء الخيار الهواري وطنا الوانودي أصلا كان أهله برأس الماء–قرية بولاية سيدي بلعباس حاليا–، توفي رحمه الله سنة 931هـ وقبره بمليانة من أعظم المزارات[22].

وقيل بأن الشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي المليانى توفي سنة 927هـ، وأنه نزل بمليانة، وكان رضي الله عنه عالما عاملا ورعا، ذا همة عالية وكرامات ظاهرة، جليل القدر كبير الشأن من كبار مشايخ الصوفية، وصحب الشيخ الإمام شيخ الطوائف زروق وكان عارفا بالله فتح عليه في علوم أسماء الله تعالى وتصريفها[23]، وهو من كبار المشايخ أهل العلم والولاية وعموم البركات والهداية، وكان كثير التلقين، فقال له الشيخ أبو عبد الله الخروبي: أهنت الحكمة في تلقينك الأسماء للعامة حتى النساء، فقال له: قد دعونا الخلق إلى الله فأبوا، فقنعنا منهم بأن نشغل جارحة من جوارحهم بالذكر، قال الشيخ الخروبي: فوجدته أوسع مني دائرة[24]،

---

[21]– أحمد بن هطال التلمساني، **رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الجزائري**، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، ط1، عالم الكتب–القاهرة، 1969م، ص15–16؛ أحمد توفيق المدني، مرجا سابق، ص140–141.

[22]– محمد بن أحمد أبي راس الناصر، **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، تقديم وتحقيق محمد غانم، منشورات مركز البحث في الأنتوبولوجية الاجتماعية والثقافية crasc وهران–الجزائر، 2005م، ص112.

[23]– محمد بن أحمد الحُضَيكي (ت1189هـ/1775م)، **طبقات الحُضَيْكي**، تقديم وتحقيق أحمد بومزكو، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1427هـ/2006م، ص25.

[24]– الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م، ج5، ص51.

وسئل رضي الله عنه عن ذات الله تعالى هل هي حسية أو معنوية؟ فأجاب: هي حسية لا تدرك، قال الشيخ أبو محمد المبطي: وهذا جواب لم يسبق بمثله وفيه دليل على قوة معرفته رضي الله عنه[25].

وكانت تظهر على يده الكرامات وأنواع الانفعالات فبعُد صيته وكثرت أتباعه فغلوا في محبته وأفرطوا فيها حتى نسبه بعضهم إلى النبوة، وفشا ذلك الغلو على يد رجل ممن صحب أصحابه يقال له ابن عبد الله، فإنه تزندق وذهب مذهب الإباضية على ما حُكي عنه، واعتقد هذا المذهب الخسيس كثير من الغوغاء وأجلاف العرب وأهل الأهواء من الحواضر، وتُعرف هذه الطائفة باليوسفية، قال ابن عسكر الشفناوي: ولم يكن بالمغرب من طوائف المبتدعة سوى هذه الطائفة، وسمعت بعض الفضلاء يقول: أنه ظهر ذلك في حياة الشيخ أبي العباس المذكور، فلما بلغه ذلك قال: من قال عنا ما لم نقله يبتليه الله بالعلة والقلة والموت على غير الملة، ويضيف ابن عسكر بأن الفقهاء قد أشاروا على السلطان الغالب بالله بحسم مادة فساد هذه الطائفة، فسجن طائفة منهم وقتل آخرين، وهؤلاء المبتدعة ليسوا من أحوال الشيخ في شيء، وإنما فعلوا كفعل الروافض والشيعة في أئمتهم، وإنما أصحاب الشيخ كأبي محمد الخياط والشيخ الشطيبي وأبي الحسن علي بن عبد الله دفين تافيلالت وأنظارهم من أهل الفضل والدين، وإلا فالأئمة المقتدى بهم كلهم يعظم الشيخ ويعترف له بالولاية والعلم والمعرفة[26].

ونقل الناصري عن صاحب المرآة أنه انتسب إليه الطائفة المعروفة بالشرّاقة بتشديد الراء وهو بريء من بدعتهم، فما كان إلا إمام سنة وهدى مقتدى به في العلم والدين، قد نزهه الله وطهّر جانبه، وقد أظهروا شيئا من

---

[25]– محمد الحُضَيكي، ص25، قال في الصفحة 26 في الهامش وعرّف به محمد بن محمد الصباغ القلعي في كتابه "بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار"، "التعريف بنسب الشيخ الإمام قدوة السالكين وإمام العارفين وتاج الموحدين وترجمان قطب الأقطاب وغوث الأغواث وجرس الأجراس سيدي أحمد بن يوسف.

[26]– محمد الحسني ابن عسكر الشفشاوي، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق، محمد حجي، ط2، دار المغرب–الرباط، 1397هـ/1977م، ص124–125؛ الناصري، مصدر سابق، ج5، ص50–51؛ محمد الحضيكي، مصدر سابق، ص25–26.

ذلك في حياته فتبرأ منهم، وقاتلهم وبلغ المجهود في تشريدهم، قال: وحدّثني شيخنا أبو عبد الله النيجي أن الشيخ أبا البقاء عبد الوارث اليالصوتي لما ظهرت بدعة الشرّاقة وانتسابهم إليه وقع في نفسه من ذلك شيء، فقيل له: إن الشيخ أبا محمد الخياط من أصحابه، فقال: أنا تائب إلى الله، كفى في طهارة جانبه أن يكون الخياط من أصحابه، وكانت وفاة الشيخ المليانى سنة 927هـ، لكن ما كان عنفوان تلك البدعة المدسوسة عليه إلا في دولة السلطان الغالب بالله كما مر، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء[27].

أثناء حكم مانيسلي مصطفى بك الذي خلف الداي عثمان بك على بايلك الغرب(صنجق الغرب) بدأ تمرد الدرقاويين، وفي سنة 1220هـ/1805م قاد التمرد في وهران شخص يدعى الشريف الدرقاوي واستطاع هزيمة مصطفى بك، فغلق هذا الأخير أبواب وهران عليه، وسُحق صنجق الغرب تحت أقدام المتمردين، وأعلنت القبائل الموجودة من مليانة حتى وجدة تمردها ضد الأوجاق الذي لم يبق له علم مرفوع إلا في مستغانم ووهران والمرسى الكبير فقط[28].

هذا باختصار أحوال مدينة مليانة أيام العثمانيين أما بخصوص عن **آثارها**، فإن المتجول فيها اليوم يلاحظ بأن سور المدينة العتيق لا يزال معظمه موجودا إلى الآن في الجهة الشرقية والغربية والجنوبية من المدينة أما الجهة الشمالية جهة جبل زكار فقد زال السور هناك، كما يمكن أن نلاحظ وجود بابين للمدينة الباب الغربي والذي لا تزال آثاره باقية إلى الآن، والباب الشرقي لم يبق منه شيء، بالإضافة إلى وجود قصبة المدينة التي تسمى حاليا الطبانة والتي لا تزال تحافظ على كثير من ملامح المدن العتيقة، دون أن ننسى مسجد سيدي أحمد بن يوسف الذي ما يزال شامخا ومعلما بارزا في المدينة مع زاويته ويدل على الوجود العثماني بمليانة، وقد قال عباس كبير بن يوسف أنه كان بالمدينة في العهد العثماني خمسة وعشرون 25 مسجدا من بينها ثمانية مشهورة، وقد خرّب أغلبها الجند الفرنسي

---

[27]- الناصري، مصدر سابق، ج5، ص51.

[28]- عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص588.

عند الاحتلال، ولم يبق غير مسجد سيدي أحمد بن يوسف الذي بُني في القرن عشر 18 هجري، وبقايا لمنارة مسجد البطحاء[29].

ولا شك أن هذا العدد من المساجد يدل على أهمية المدينة وكثرة مرافقها خاصة في العهد العثماني، وهذا يعني وجود كثير من الفنادق والحمامات، وبما أننا نريد هنا الكلام على الحمامات فإننا نقول بأنه ولا شك كان هناك عدد كبير منها، غير أن المتجول الآن في المدينة لا يجد سوى حمام واحد فقط يُرجّح أنه يعود إلى هذه الفترة من خلال تخطيطه وبعض العناصر الزخرفية فيه، وهو حمام البركة والذي سنحاول دراسته هنا، وتجدر الإشارة أيضا إلى أنه كان هناك حمام عثماني آخر بالقرب من المسجد اليوسفي درسه زميلنا الدكتور عبد القادر قرمان في رسالة ماجستير، غير أن مالك الحمام باعه؛ والمالك الجديد قام بهدمه وبنى مكانه عمارة على الطراز العصري، وعلى هذا فلم يبق إلا حمامنا هذا الذي سنتطرق إليه في الصفحات الموالية.

4– وصف حمام البركة بمليانة: (ينظر المخطط 01)

يقع حمام البركة بوسط مدينة مليانة ونجده في الجهة الشمالية الشرقية على بعد حوالي 100م من المسجد الكبير العثماني المسمى مسجد سيدي أحمد بن يوسف الذي بناه محمد الكبير باي الأيالة الغربية كما مر معنا، ويُطل الحمام على الشارع بباب خشبي حديث حيث يفتح إلى الداخل بمصراعين وقد جاءت كتلة المدخل على شاكلة المداخل التذكارية، حيث اكتنفه من جانبيه وأعلاه زخرفة نباتية تمثلت في زهرة القرنفل مفتحة وهي الزخرفة التي استعملها العثمانيون كثيرا في مبانيهم(أنظر الصورة1)، وقد نفذت هذه الأزهار داخل أطر على شكل معين كما زُخرفت واجهات هذه الأطر زخارف نباتية أخرى، كما استعمل أيضا شكل الهلال والذي نجده يعلو المدخل في وسط الإطار الزخرفي كما نجده أيضا قد شغل الركنين الأيمن والأيسر في أعلى هذا الإطار، وفوق هذا الإطار الذي جاء على شكل عمودين يكتنفان الباب ويعلوهما شكل كعقد، وُجدت هناك زخرفة أخرى مماثلة فوقها مباشرة ولكنها أصغر حجما وقد غطتها لافتة حديثة والتي كتب عليها اسم الحمام (حمام البركة) .

[29]– عباس كبير بن يوسف، مليانة، Imprim-Fast الجزائر، 2000م، ص 05.

كما نجد على يسار الداخل في واجهة هذا المعلم ثلاثة نوافذ فتحت إلى الخارج وهي ذات شكل مربع يعلوه قوس نصف دائري، وقد زُخرفة أطرها الخارجية وبواطنها بمربعات خزفية حديثة، يعلو هذه النوافذ مباشرة ثلاث نوافذ أخرى كل واحدة منها بدفتين خشبيتين تقع في الجزء الذي يعلو القاعة البارد.

وعلى يمين الباب نجد مدخلين استعمل أحدهما مدخل لأحد الأشخاص والذي اتخذ جزءً من سطح الحمام سكنا له، أما الباب الثاني فهو مدخل الفرن الذي نجد به قدور التسخين والمكان المخصص لمواد إذكاء نار الفرن، وبين هاذين البابين هناك نافذة تشبه النوافذ الثلاثة السفلية السابقة الذكر.

هذا بالنسبة للواجهة والتي تفتح في الجهة الجنوبية الغربية، أما الواجهات الأخرى فكلها مشغولة بمساكن ملاصقة للحمام.

4. 1 السقيفة:(صورة 2)

مكونة من جزأين؛ الجزء الأول يقابل باب المدخل مباشرة، والجزء الثاني يرتفع عنه بدرجة، وينفصل الجزءان ببابين خشبيين آخرين، وشغل الجزء الثاني (الذي منه ندخل إلى الغرفة الباردة مباشرة والتي توجد على يسار السقيفة في أقصاها) بمصطبات للجلوس والانتظار، وقد بُلطت الأرضية ببلاطات حديثة وهو نفس الشيء الملاحظ في تكسية جزء كبير من جدران السقيفة حيث استعملت فيه بلاطات خزفية حديثة، أما السقف فهو نصف أسطواني مما يدل على أنه سقف أصلي لم يتعرض للتغيير، كما نجد في أعلى الجدار الأيسر نافذة متوسطة الحجم ومربعة الشكل تفتح على الغرفة الباردة، ولا شك أن هذه النافذة والنوافذ الخارجية كلها محدثة إذ من المعلوم أن جل الحمامات إن لم نقل كلها لا توجد بها نوافذ وإنما تضاء من السقف بواسطة فتحات مخروطية الشكل تُعشّق بالزجاج، وقد فُتحت هذه النوافذ لنفس الأسباب وذلك لتوفير الضوء داخل الغرفة بصفة خاصة لأن سقفها مصمت كما سنرى بعد هذا .

4. 2 الغرفة الباردة : (الصورة3)

ندخل إليها عبر مدخل بابه خشبي حديث مفتوح في أقصى الجدار الأيسر للسقيفة، والغرفة الباردة تميل إلى الاستطالة في شكلها وقد قُسّمت إلى جزأين، الجزء الذي يقابل المدخل مباشرة حيث نجد مكان صاحب الحمام والنافورة، والجزء الثاني يرتفع بدرجتين وهو مخصص للاستلقاء والاستراحة ووضع ملابس المستحمين، وقد فُصل

هذا الجزء بواسطة ستة أعمدة تحمل أقواسا نصف دائرية وقد كسيت كل من الأعمدة والأقواس بمربعات خزفية حديثة، ويظهر من خلال التيجان التي لا تزال ظاهرة أنها تشبه إلى حد بعيد التيجان القوطية، ووصلت التيجان فيما بينها بعوارض خشبية كتلك التي تستعمل في المساجد، وقد شُغل الفراغ الذي فوق سقف هذا الجزء كمكان مخصص للنوم في فترات سابقة، أما عن أرضية هذه القاعة (الجزءان) فقد بلطت ببلاطات حديثة كما كسيت أيضا جدرانها بزليج حديث وحتى مكان الحمامي الذي يوجد على يسار الداخل مباشرة لم يسلم من هذا التغيير، وبالنسبة للتسقيف فقد لاحظنا أن سقف هذه الغرفة سقف مسطح وهو تسقيف معاد إذ تظهر آثار رقبة قبة وقد نُزعت خوذتها واستبدلت بسقف مسطح من زجاج بين عوارض حديدية (الصورة 4)، والأصل أن يكون تسقيف الحمامات بأقبية نصف أسطوانية أو قباب تحيط بها أقبية نصف أسطوانية أو أقبية متقاطعة، وهذا هو السبب الذي جعل الإضاءة قليلة في هذه الغرفة مما استدعى إحداث النوافذ التي رأيناها خارج الحمام.

وعلى يمين الداخل لهذه الغرفة نجد مدخلين الأول مصمت أما المدخل الثاني الذي يليه فهو الذي يفضي إلى القاعة الدافئة ولعل المدخل الأول كان هو المدخل الرئيسي للغرفة الدافئة.

بالنسبة للنافورة فهي ذات شكل دائري والظاهر أنها معادة.

وفي الجهة المقابلة ليمين الداخل وقريبا من الركن الأيمن نجد درج صاعد لطابق علوي والذي يشغل معظم الجزء المسقوف للغرفة الباردة، وبالنسبة لتبليط الدرجات وكذا جدران الدرج قد استعمل فيه تبليط حديث، أما سقفه فهو نصف أسطواني .

4. 3 الطابق الأول : (المخطط2)(الصورة5)

هذه الطوابق ظاهرة جديدة في عمارة الحمامات ظهرت في العهد العثماني وقد خُصصت لبعض الشخصيات المرموقة للراحة، ثم جعلت في وقت متأخر مكانا للمبيت.

يقابل الصاعد لهذا القسم صهريج للماء البارد يشغل جزء من سطح الغرفة الدافئة، والظاهر أن أرضيته قد سويت لمثل هذا الغرض لأن سقف الغرفة الدافئة نصف أسطواني وبالتالي قد سُويَ هذا الجزء لهذه الوظيفة، وواجهة الصهريج عبارة عن جدار يرتفع إلى أن يقارب السقف النصف الأسطواني، ووجود الصهريج في هذا

المكان لا شك أنه تعديل في نظام الحمام إذ أن الصهاريج في الحمامات السابقة كانت توجد خلف الغرفة الساخنة مباشرة لكي يسهل تزويد هذه الغرفة بالماء بسهولة ويسر.

بالنسبة لهذا القسم فهو ذو شكل غير منتظم نطل منه على الغرفة الباردة، وقد شُغلت هذه الجهة بدرابزين خشبي مدمج في أعمدة التي ترتفع فوق الأعمدة السفلية وهي تشبهها، غير أن أبدانها لم تُكس بالزليج بل بقيت على حالها ولم نستطع تمييزها جيدا بسبب كثافة الطبقة التي صُبغت بها ويظهر وكأن أبدانها مبنية بالآجر، ولو ثبت ذلك فهي إذن دعامات بُنيت علة هيئة أعمدة، وهي تتشابه في تيجانها مع تيجان الأعمدة السفلية وهي على شكل حلزوني (الصورة06).

تحمل هذه الأعمدة أقواسا نصف دائرية شبيهة بالأقواس السفلية، وزينت كل هذه البوائك بشريط من المربعات الخزفية ووُصِلت بأخرى ترتفع من الأعمدة وتلتصق معها، ويظهر أنها بلاطات أصلية في هذا الحمام(الصورتين7-8)، بالنسبة لتبليط هذه الأرضية فقد استعمل فيها بلاطات حديثة، أما السقف فهو نصف أسطواني وهو بهذا سقف أصلي.

آخر شيء يمكن الإشارة إليه في هذا الطابق هو باب يقع على يسار الصاعد لهذا الطابق وهو يفضي إلى منزل شخص اتخذ من هذا المكان سكنا له، ويظهر سمك الجدار بهذا المدخل والذي يصل إلى حوالي 60سم.

4. 4 الغرفة الدافئة : (الصورتين9-10)

مدخلها يقع على يمين الداخل للغرفة الباردة وهو باب خشبي حديث وهي غرفة مستطيلة الشكل، يقابل الداخل إليها مباشرة الباب الذي يؤدي إلى الغرفة الساخنة، وفي الركن الأيسر المقابل نجد مرحاض يلتصق به من الخارج حوض ماء صغير، وقد شُغل النصف الأيمن من هذه الغرف بمصطبات للجلوس سواءً للداخل للحمام أو الخارج منه، وقد بُلطت أرضيتها ببلاطات حديثة، أما جدرانها وسقفها فقد استعمل فيه زليج حديث وسقفها نصف أسطواني.

وهذه القاعة إنما تكون في كل الحمامات بسيطة إلى حد ما لأنها تعتبر حلقة وصل بين الغرفة الباردة والدافئة، بحيث ترتفع درجة حرارة المستحم تدريجا قبل الدخول إلى الغرفة الساخنة؛ كما تساعد على تخفيض حرارة جسم

الخارج من الغرفة الساخنة، إذ لو خرج مباشرة إلى الغرفة الباردة فقد يتسبب هذا في مرض المستحم، كما تعتبر مكان استراحة لمن تؤثر الحرارة العالية عليه.

4. 5 الغرفة الساخنة :

وهذه الغرفة مدخلها ذي باب خشبي حديث (الصورة11) وهي مربع الشكل وقد أضيفت إليها غرفة صغيرة مربعة الشكل أيضا مدمجة في الركن الأيمن للداخل، نجد في وسط هذه الغرفة أربعة أعمدة تعلوها عقود وقد كسيت الأعمدة والعقود بزليج حديث، وتعلوها قبة مصمتة فُتح في رقبتها نوافذ صغيرة معشقة بالزجاج للإضاءة، أما جزء الأعمدة السفلي فقد شغل بما يسمى سرة الحمام، وهي بناء يرتفع عن الأرضية قدر المتر يتمدد عليه المستحمون للتعرق أكثر وهو أسخن موضع في الحمام، وقد رُكبت في أسفل جدران هذه الغرفة صهاريج صغيرة عددها سبعة وعشرون (27) صهريجا يكفي كل صهريج لفرد واحد فقط، ويصب في كل صهريج الماء الساخن والبارد من حنفيتين مركبتين في قنوات حديدية تمر في جدران هذه القاعة، ولا شك بأن هذه إضافة جديدة؛ إذ أن الحمامات القديمة كان يوجد بها حوضين مدمجين في الحائط أحدهما مخصص للماء الساخن والآخر للماء البارد.

أما أرضيتها فهي معادة ببلاطات حديثة، أما السقف فتحيط بالقبة الوسطية أقبية نصف أسطوانية، وقد فُتح في كل من القبو الذي يلي الباب والقبوين الأيمن والأيسر فتحة مربعة في وسط كل قبو وقد غطيت بشبابيك من حديد وزجاج، وهي بهذا توفر الضوء داخل الحمام مع الفتحات التي وجدت في رقبة القبة، وهذا النوع من التسقيف هو الذي استعمل في سائر الحمامات القديمة مما يدل على أنه أصلي.

4. 6 ملحقات الحمام:

هناك عناصر معمارية تُكمِّل النظام التخطيطي للحمامات وهي المكان الذي يتصل بالحمام من الجهة الخارجية وبالتحديد جهة الغرفة الساخنة حيث نجد الفرن وصهريج أو بئر للماء بالإضافة إلى فراغ لوضع مواد إشعال الفرن؛ كما قد نجد أيضا غرفة مخصصة لصاحب الحمام أو العامل، بخصوص الفرن فقد كنا ذكرنا بأن مدخله يلي مدخل الحمام من الخارج، ولم نستطع الدخول إليه، ولكن من خلال دراسة الحمامات السابقة يمكن معرفة تخطيطه، حيث نجد أن مستوى الفرن يكون دائما منخفضا عن مستوى الغرفة الساخنة لأنه يمدها بالحرارة التي تمر أسفل هذه القاعة وفي جدرانها وهو ما يجعلها أكثر حرارة من غيرها، كما أن موقعه هذا يسهل عملية

إيصال الماء الحار إلى الغرفة الساخنة وذلك عبر قدور من النحاس (البرمة) التي يُسخَّن فيها الماء، ويصل الماء إلى الحوض المخصص للماء الساخن عبر قنوات مخصصة لهذا الغرض، أما في الوقت الحالي فقد استغنى الحمام عن مثل هذه الأفران باستعمال أفران حديثة تعمل بالغاز بدل الحطب وغيره، وبخصوص الماء الذي هو العنصر الحيوي في الحمامات فإن حمام مليانة هذا قد حُوِّل صهريج الماء من مكانه الأصلي في الحمامات القديمة من جوار غرفة الحرق إلى أعلى الغرفة الباردة كما سبق وأن ذكرنا ذلك.

5- مقاربة أثرية تساعد على تأريخ الحمام[30]:

من خلال التخطيط العام فقد قال كاثكرت بأن الحمامات التركية مبنية على طراز واحد فنجد أولا غرفة صغيرة مؤثثة مخصصة لنزع الملابس، ثم غرفة أخرى دافئة يجلس فيها المستحم حتى يتصبب عرقا ومنها يدخل إلى الغرفة الساخنة حيث يُنظف جيدا ويدلك ثم يعود أدراجه إلى الغرفة الدافئة ثم إلى القاعة الأولى، ويضيف قائلا: "بأن جميع الحمامات في هذه الأيالة-يقصد الجزائر- بل وفي جميع بلاد المغرب بنيت على أساس نفس القواعد والمبادئ وهي كلها مزخرفة بدرجات متفاوتة"[31]، وهذا نفس التخطيط الذي وجدناه بحمام مليانة.

أيضا بخصوص **القاعة الباردة** ففي الحمامات العثمانية نجد هذه القاعات واسعة بها أعمدة ودعامات تحمل أقواسا تنفصل الغرفة بسبب ذلك إلى جزأين، الجزء الأوسط والذي تكون أرضيته منخفضة مقارنة مع الجزء الثاني المحيط به والذي خصص للاستراحة والاستلقاء بعد الخروج من الحمام؛ حيث جُعل جزء منها كغرفة ملحقة، بالإضافة إلى وجود نافورة للماء والتي شغلت وسط هذه القاعة.

---

[30]- ينظر في هذا الصدد مقالنا عن الحمامات العثمانية: "**خصائص الحمامات العثمانية في الجزائر من خلال نماذج مقارنة بالحمامات المرابطية والمرينية**"، مجلة **كان** التاريخية، دورية إلكترونية محكمة ربع سنوية، السنة السادسة العدد العشرون، يونيو (حزيران) 2013م رجب 1434هـ، ص ص31-38.

[31]- جمس ليندر كاثكارت، **مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب**، ترجمها عن الإنجليزية وعلق عليها وقدم لها إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر، 1982م، ص93-94.

هناك شيء مهم أيضا بهذه القاعة والذي تختص به الحمامات العثمانية فقط وهو الجزء المسقوف والمسمى السُدّة والمخصص لاستراحة بعض الشخصيات المرموقة ونصل إليه بواسطة درج، كما هو الحال في حمام باش آغا بمدينة البليدة[32] وحمامي سوق الغزل وبن البجاوي بقسنطينة[33]، ونجدها أيضا في كل من حمامي الباي والبركة بمعسكر وحمام البركة بمازونة وحمام المور بمستغانم[34]، وهذه الظاهرة لا نجدها في الحمامات السابقة كالحمامات المرابطية والمرينية[35]، وقد وجدنا هذه الظاهرة بحمام البركة بمدينة مليانة الذي درسناه.

بخصوص الغرفة الساخنة فمن خصائص الحمامات العثمانية أن كل قاعة نجد في وسطها بناءً مرتفعا يقدر بحوالي 1م والمسمى سرّة الحمام؛ بالإضافة إلى غرف جانبية هذا فضلا على تسقيف هذه الغرفة بقبة تحيط بها أقبية نصف برميلية كما هو الحال في حمامات البليدة كحمام سيدي عبد الله وحمام باش آغا[36] وحمامات

---

[32]- بن شامة سعاد، **المنشآت المعمارية الأثري بمدينة البليدة في العهد العثماني(المساجد-الأَضرحة-المساكن-الحمامات) دراسة معمارية أثرية**، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار جامعة الجزائر، 2009م، ص234.

[33]- دحدوح عبد القادر، **مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني دراسة عمرانية أثرية**، دكتوراه علوم في الآثار الإسلامية، معهد الآثار جامعة الجزائر، 2010م، ص463، 469-470؛ بن حمو محمد، **حمام سوق الغزل بقسنطينة**، مجلة **القرطاس** الدراسات الحضارية والفكرية، دورية علمية محكمة تعنى بالبحوث في الحضارة والفكر بالمغرب العربي، العدد 02 جانفي 2015م، ص300.

[34]- بلجوزي بو عبد الله، **آثار عمران حواضر بايلك الغرب في العهد العثماني مازونة، معسكر، وهران، مستغانم أنموذجا**، دكتوراه علوم في الآثار الإسلامية، معهد الآثار جامعة الجزائر 2، 2013م، ص292، 295، 300، 303.

[35]- وقد فَصّلْت الكلام على هذه الظاهرة في مقال حول الحمامات العثمانية، ينظر: بن حمو محمد، **خصائص الحمامات العثمانية** ...، مرجع سابق، ص33.

[36]- بن شامة سعاد، مرجع سابق، ص225، 237-238.

قسنطينة كحمام سوق الغزل وحمام البجاوي[37] وحمام الشيخ المندثر بمليانة[38]، وأيضا في كل من حمام الباي بوشلاغم بمدينة وهران وحمامي الباي والبركة بمعسكر وحمام البركة بمازونة وحمام المور بمستغانم[39]، وقد وجدنا نفس هذه العناصر المعمارية بحمام مليانة فنجد به غرفة صغيرة مربعة الشكل مدمجة في الركن الأيمن للداخل كما نجد السرة في وسط هذه الغرفة بالإضافة إلى تسقيفها بقبة وسطية تحيط بها أقبية نصف برميلية.

6. خاتمة:

رغم بقاء العثمانيين بمدينة مليانة مدة زمنية طويلة ورغم أنها كانت مدينة مهمة نوعا ما في المنطقة، إلا أن الحمامات التي تعود إلى هذه الفترة قليلة، فقد أحصينا حمامين فقط أحدهما هو الحمام الذي قمنا بدراسته في هذا المقال، ولعل السبب في ذلك أن العثمانيين استخدموا تلك الحمامات التي كانت موجودة قبل ذلك بالمدينة، وأن الإستدمار الفرنسي خرّب معظمها، وعلى كل حال فإنه في غياب تاريخ واضح لهذا الحمام الذي درسناه، فإنه ومن خلال المعاينة الميدانية للمنطقة التي وُجد بها الحمام، فإن مبانيها تعود لتلك الفترة، هذا بالإضافة إلى أن المقارنة التي أثبتناها أعلاه بينه وبين غيره من حمامات نفس الفترة أثبتت بأن تخطيطه يُشبه تخطيط الحمامات العثمانية.

---

[37]- دحدوح عبد القادر، مرجع سابق، ص465-466، 471-472.

[38]- قرمان عبد القادر، **المنشآت المدنية في مدينة مليانة في العهد العمثاني دراسة أثرية**، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار جامعة الجزائر، 2007م، ص100-101.

[39]- بلجوزي بوعبد الله، مرجع سابق، ص287-288، 292، 296-297، 300، 304-305.

مجلة "منبر التراث الأثري"
ISSN: 2335-1500, EISSN: 2602-7267

7. الملاحق:

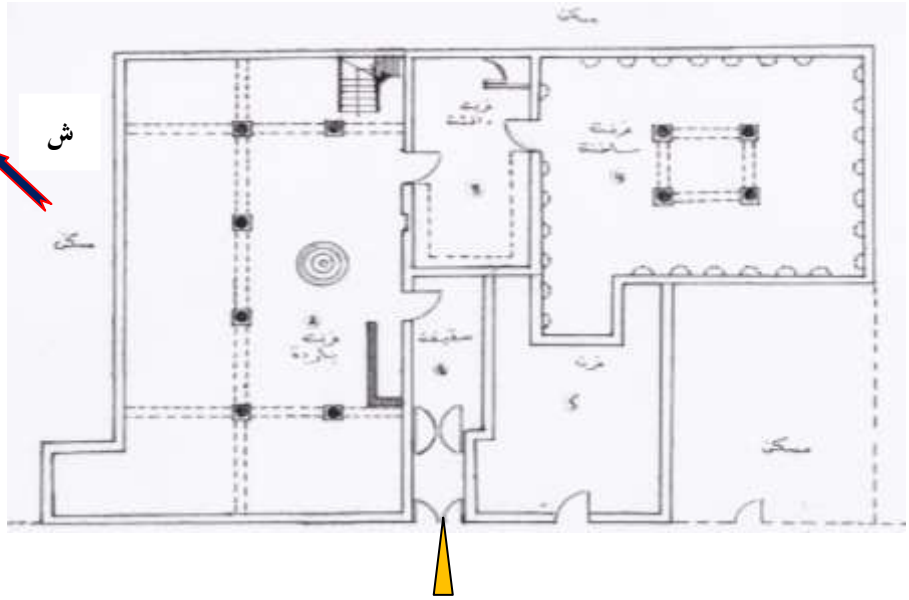

مخطط 01 حمام مدينة مليانة من عمل الباحث السلم 100/1

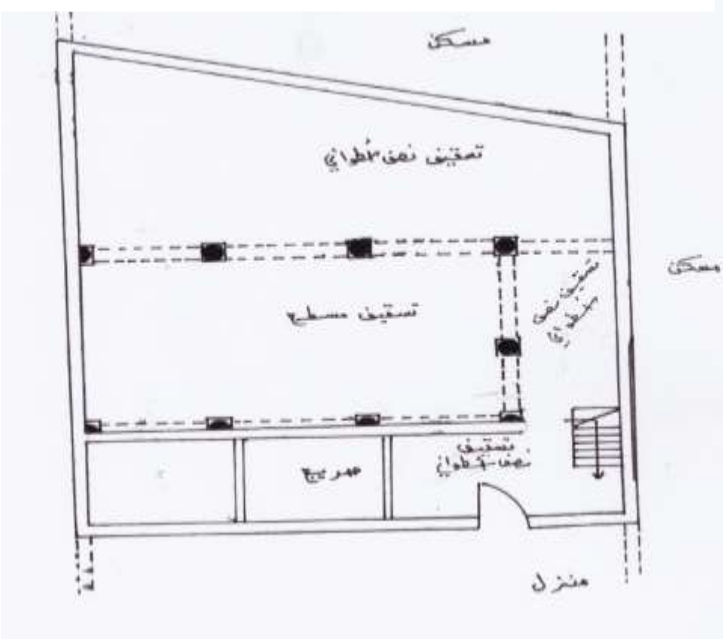

مخطط 02 الطابق الأول بالغرفة الباردة من عمل الباحث السلم 100/1

الصورة 1: مدخل الحمام

الصورة 2: السقيفة

الصورة3: الغرفة الباردة

الصورة4: سقف الغرفة الباردة، يظهر أنه حديث.

الصورة5: الدرابزين مع الأقواس بالطابق الأول

الصورة6:عمود في الطابق الأول

الصورتين7–8: بلاطات خزفية يظهر أنها أصلية.

الصورتين9-10: الغرفة الدافئة

الصورة11: مدخل الغرفة الساخنة

8. البيبليوغرافيا:

المصادر والمراجع:

– الإدريسي الشريف، **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس** مأخوذ من كتاب **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبع بريل، 1863م.

– ابن بطوطة، رحلة المسماة **تحفة النظار في غرائب الأمصار**، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، منشورات محمد علي بيضون، دط، دار الكتب العلمية بيروت–لبنان، دت.

– بلجوزي بو عبد الله، **آثار عمران حواضر بايلك الغرب في العهد العثماني مازونة، معسكر، وهران، مستغانم أنموذجا**، دكتوراه علوم في الآثار الإسلامية، معهد الآثار جامعة الجزائر 2، 2012–2013م.

– بن شامة سعاد، **المنشآت المعمارية الأثري بمدينة البليدة في العهد العثماني(المساجد–الأَضرحة–المساكن–الحمامات) دراسة معمارية أثرية**، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار جامعة الجزائر، 2008–2009م.

– البكري أبو عبيد الله، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من المسالك والممالك**، د.ط، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة–مصر، 1857م.

– التر عزيز سامح، **الأتراك العثمانيون في أفريقية الشمالية**، ترجمة محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت–لبنان، 1409هـ/1989م.

– الحُضَيكي محمد بن أحمد(ت1189هـ/1775م)، **طبقات الحُضَيْكي**، تقديم وتحقيق أحمد بومزكو، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1427هـ/2006م.

– الحموي ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي، **معجم البلدان**، عني بتصحيحه وترتيب وضعه وكتابة المستدرك عليه محمد أمين الخانجي الكتبي بقراءته على أحمد بن الأمين الشنقيطي، مع المستدرك عليه المسمى منجم العمران لمحمد أمين الخانجي، ج8، ط1، طبع بمطبعة السعادة–مصر، د.ت.

– الحميري محمد بن عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، معجم جغرافي مع فهارس شاملة، حققه إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان–بيروت، 1984م.

- خوجة حمدان، **المرآة**، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، تصدير عبد العزيز بوتفليقة، منشورات ANEP، 2005م.

- دحدوح عبد القادر، **مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني دراسة عمرانية أثرية**، دكتوراه علوم في الآثار الإسلامية، معهد الآثار جامعة الجزائر، 2009-2010م.

- أبو راس الناصر محمد بن أحمد، **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، تقديم وتحقيق محمد غانم، منشورات مركز البحث في الأنتوبولوجية الاجتماعية والثقافية crasc وهران-الجزائر، 2005م.

- **رحلة العالم الألماني ج. او. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس1145هـ/1732م**، ترجمة وتقديم وتعليق ناصر الدين سعيدوني، دط، دار الغرب الإسلامي، تونس، دت.

- سبنسر وليم، **الجزائر في عهد رياس البحر**، تعريب وتعليق عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980م.

- العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود، **رحلة العبدري**، حققها وقدم لها علي بن إبراهيم كردي، وشاكر الفحام، ط1، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع-دمشق، 1419هـ/1999م.

- ابن عسكر محمد الحسني الشفشاوي، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق، محمد حجي، ط2، دار المغرب-الرباط، 1397هـ/1977م.

- قرمان عبد القادر، **المنشآت المدنية في مدينة مليانة في العهد العمثاني دراسة أثرية**، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار جامعة الجزائر، 2006-2007م.

- الوزان الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1983م.

- كاثكارت جمس ليندر، **مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب**، ترجمها عن الإنجليزية وعلق عليها وقدم لها إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر، 1982م.

- كاربخال مارمول، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي وآخرين، ج2، مطابع المعارف الجديدة، الرباط-المغرب، 1409هـ/1989م.

– المدني أحمد توفيق، **محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766–1791م سيره، حروبه، أعماله، نظام الحياة الدولة والحياة العامة في عهده**، المؤسسة الوطنية للكتاب–الجزائر، 1986م.

– الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م.

– ابن هطال أحمد التلمساني، **رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الجزائري**، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، ط1، عالم الكتب–القاهرة، 1969م.

المقالات:

– بن حمو محمد، "**خصائص الحمامات العثمانية في الجزائر من خلال نماذج مقارنة بالحمامات المرابطية والمرينية**"، مجلة **كان** التاريخية، دورية إلكترونية محكمة ربع سنوية، السنة السادسة العدد العشرون، يونيو (حزيران) 2013م رجب 1434هـ، ص ص31–38.

– بن حمو محمد، "**حمام سوق الغزل بقسنطينة**"، مجلة **القرطاس** الدراسات الحضارية والفكرية، دورية علمية محكمة تعنى بالبحوث في الحضارة والفكر بالمغرب العربي، العدد 02 جانفي 2015م، ص ص295–309.